اسم المادة: الباعث - البارئ - الحسيب - الحميد

من سلسلة: الحسنى

لفضيلة الشيخ: حسن بن عبد الحميد بخاري

اسم المادة: الباعث - البارئ - الحسيب - الحميد

من سلسلة: الحسنى

لفضيلة الشيخ: حسن بن عبد الحميد بخاري

رابط المادة: https://way2allah.com/khotab-item-167993.htm

الباعث

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

ذكر بعض المفسرين مثل مجاهدٍ وقتادة والسُدّي وعروة بن الزبير وغيرهم -رحمة الله عليهم-: أن أبي بن خلف وقال بعضهم: إنه العاص بن وائل السهمي، أنه جاء إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي يده عظمٌ رميمٌ وهو يفتته ويُذريه في الهواء، ثم يقول: يا محمدُ أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: نعم، يميتك الله ثم يحييك ثم يحشرك إلى جهنم، قيل فنزلت الآيات الأخيرة من سورة يس: "أَوَلَمْ يَرَ الإنسانُ أَنَّا خَلَقناهُ مِن نُطفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصيمٌ مُبينٌ * وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلقَهُ قالَ مَن يُحيِي العِظامَ وَهِيَ رَميمٌ * قُل يُحييهَا الَّذي أَنشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلقٍ عَليمٌ" يس٧٧:٧٩. "زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ" التغابن٧:٨.

ليس في كتاب الله الكريم ورود اسم الباعث لله -سبحانه وتعالى-، لكنّما جاءت الأفعال التي تثبت صفة البعث لله -جل جلاله- في مثل قول الله -سبحانه وتعالى-: "ثُمَّ بَعَثناكُم مِن بَعدِ مَوتِكُم لَعَلَّكُم تَشكُرونَ" البقرة:٥٦، وقوله -سبحانه وتعالى-: "وَأَنَّ اللَّهَ يَبعَثُ مَن فِي القُبورِ" الحج:٧، ومنه أيضًا قول ربنا -جل جلاله-: "وَلَقَد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغوتَ" النحل:٣٦، وأما في السنة فقد ورد اسم الباعث في الحديث الذي روى أبو هريرة -رضي الله عنه- فيما أخرج الأئمة الترمذي والبيهقي وابن حِبّان في صحيحه التي فيها سرد الأسماء الحسنى :"إن للهِ عزَّ وجلَّ تسعةً وتسعينَ اسمًا من أحصاها دخلَ الجنةَ" وجاء في سياق تعدادها اسم الباعث لله -سبحانه وتعالى-، هذا اسم الباعث المشتمل على معنى البعث، يعود في اللغة إلى معنى الإنهاض والاستثارة، يقال: بعث بَعِيرَهُ أي: أثاره فاستنهضه، وبعث خادمه أو غلامه أي: أرسله. قال الليث: "والبعث في اللغة يأتي على معنيين: أحدهما: الإرسال؛ ومنه قوله -تعالى-: "وَلَقَد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا" النحل:٣٦، وقوله: "ثُمَّ بَعَثنا مِن بَعدِهِ رُسُلًا إِلى قَومِهِم فَجاءوهُم بِالبَيِّناتِ" يونس: ٧٤، وقوله -سبحانه-: "ثُمَّ بَعَثنا مِن بَعدِهِم موسى وَهارونَ إِلى فِرعَونَ وَمَلَئِهِ بِآياتِنا فَاستَكبَروا وَكانوا قَومًا مُجرِمينَ" يونس: ٧٥.

وأما المعنى الثاني: فهو الإنهاض، والإخراج والإحياء، ومنه قول الله -سبحانه وتعالى-: "وَأَنَّ اللَّهَ يَبعَثُ مَن فِي القُبورِ"، "ثُمَّ بَعَثناكُم مِن بَعدِ مَوتِكُم لَعَلَّكُم تَشكُرونَ".

وعلى هذين المعنيين يتنزل اسم الباعث –سبحانه وتعالى–، فإن الله يبعث خلقه أي: يخرجهم من قبورهم ويحييهم وينشرهم ليوم القيامة والعرض والجزاء والحساب، والله أيضًا –سبحانه وتعالى– قد بعث رسله مبشرين ومنذرين، وبلغهم وحيه وشريعته؛ لأجل تبليغها للأمم ودلالتهم على صراط الله المستقيم ودينه القويم، فسبحان ربنا الباعث –سبحانه وتعالى–.
قضية البعث بعد الموت جزءٌ من القضايا القرآنية التي تكرر ورودها في القرآن، إذ كانت بصدد إثبات هذه القضية لكفار قريش، فإنها كانت إحدى مسائل العقيدة التي تنزل الوحي بها: "زَعَمَ الَّذينَ كَفَروا أَن لَن يُبعَثوا قُل بَلى وَرَبّي لَتُبعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِما عَمِلتُم وَذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ * فَآمِنوا بِاللَّهِ وَرَسولِهِ وَالنّورِ الَّذي أَنزَلنا" التغابن:٧-٨، إنه البعث الذي كابرت فيه قريشٌ وسائر كفرة العرب زاعمين أنه لا حياة بعد الموت، هذه القضية التي تعيد للعقل البشري توازنه، وتفكيره في الحياة وما بعد الحياة؛ التي ألقت بظلالها اليوم في ماديتها الطاغية حتى أنْسَت طوائف من البشر ما الذي ينتظرهم بعد الموت.

إن عقيدتنا أمة الإسلام، تقوم في أحد أركانها على الإيمان باليوم الآخر، وأول مراحله وأجزائه البعث من القبور والإخراج والإحياء والنشور، في صحيح البخاري أن رجلًا أتى النبي –عليه الصلاة والسلام– وهو بارزٌ إلى الناس فقال: ما الإيمان؟ فقال النبي –عليه الصلاة والسلام–: "الايمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وبلقائه، وبالرسل، وبالبعث" الإيمان باليوم الآخر حياةٌ أخرى، عقيدةٌ تنشئ في حياة المسلم توازنًا واستقرارا، فأما الطائع المجتهد في طاعته فلا يزال حريصًا على الاستمرار؛ كسبًا لحسناتٍ يحب أن تبيّض بها صحيفته ويُسَر يوم يلقى الله، وأما المقصر والخائف والمفرِط على نفسه فلا يزال يتيقّظ بين الحين والحين، وواعظ الإيمان في قلبه يذكره أن انتبه عبد الله؛ فإن بعثًا قريبًا ينتظرك وستقابل الله –عز وجل–.

كان مطرِّف بن عبد الله بن الشِخِّير –رحمه الله– يُوصي أصحابه فيقول: "أيها الناس اجتهدوا في العمل، فإن كان اللقاء غدًا كما نحب ونرجو من رحمة الله وعفوه كانت الحسنات والدرجات، وإن كانت كما نخاف ونحذر لم نقل "رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ" فاطر:٣٧، بل نقول قد عملنا فلم ينفعنا". هذا هو حال الأكياس الصالحين الذين أثنى الله –عز وجل– عليهم في كتابه الكريم من إيمانهم بالبعث، وربنا الباعث –سبحانه– الذي أخبر بهذا في سورة المؤمنون: "وَالَّذينَ يُؤتونَ ما آتَوا وَقُلوبُهُم وَجِلَةٌ أَنَّهُم إِلى رَبِّهِم راجِعونَ" المؤمنون:٦٠، أرأيتم كيف يصنع الإيمان بالباعث في حياة قلوب أصحابها المؤمنين؟ قال –سبحانه وتعالى–: "أُولئِكَ يُسارِعونَ فِي الخَيراتِ وَهُم لَها سابِقونَ" المؤمنون:٦١، أسأل الله –عز وجل– أن يلحقنا بهم جميعًا بفضله وكرمه –سبحانه وتعالى–.

البارئ

أسعد الله أوقاتكم بطاعته ومرضاته –سبحانه وتعالى–، لقد كان نبينا –صلوات الله وسلامه عليه– يثني على ربه فيحسن الثناء، وكان مما أثنى به على ربه –عز وجل– أنه وصفه بكونه برأ المخلوقات وذرأها وخلقها –سبحانه وتعالى–.

في الحديث الذي حسنه الألباني –رحمة الله عليه– فيما روى الإمام أحمد أن النبي –عليه الصلاة والسلام– لما كادته الشياطين وتحدرت عليه من رؤوس الجبال، وفيهم شيطان معه شعلة من نار يريد أن يحرق بها رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– قال: فرُعب، فآتاه جبريل –عليه السلام– فقال: "قل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن برٌ ولا فاجر من شر ما ذرأ وخلق وبرأ، ومن شر ما ينزل من السماء، ومن شر ما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض، ومن شر ما يخرج منها، ومن فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارقٍ، إلا طارقًا يطرق بخير، يا رحمن". قال فطفئت نار الشيطان وهزمهم الله –تعالى–.

برأ –سبحانه– خلقه؛ أي بثهم وأوجدهم ونشرهم بين الخلائق فسبحان الباري –جل في علاه–. في سورة البقرة قال الله –سبحانه وتعالى–: "وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" البقرة:٥٤

هاتان مرتان متجاورتان جاء فيهم اسم الباري –سبحانه وتعالى–، والباري في اللغة يأتي بمعنى خلق فإنه اسم فاعل من برأ، وبرأ فعل من الأفعال التي تدل على معنى الخلق والإيجاد، ولهذا جاء اسم الباري الثالث في القرآن الكريم مجاورًا للفعلين والاسمين المشتملين على الخلق والتصوير في ختام سورة الحشر "هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" الحشر:٢٤، وبرأ في اللغة تدل على معنيين أصليين كما يقول أهل اللغة، أحدهما الخلق كما في قوله –تعالى– "فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ" البقرة:٥٤ أي إلى الله خالقكم –سبحانه وتعالى–، وأما المعنى الآخر فهو التباعد عن الشيء ومنه قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– لما خرج من عند رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– في مرضه الذي مات فيه، فخرج من عنده وسأله الناس يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله –صلى الله عليه وسلم–؟ فقال –رضي الله عنه–: أصبح بارئًا بحمد الله، يعني معافى من المرض الذي كان قد ألم به، والوجع الذي نزل به –صلوات الله وسلامه عليه–.

ومن هذا المعنى اللغوي جاء اسم الباري –سبحانه وتعالى–، فإنه الخالق لخلقه من عدم، وهو واهب الحياة للأحياء، وهو –جل جلاله– الباري الخالي من العيوب، السالم من الآفات، فالباري –سبحانه وتعالى– كما يدل على معنى الخلق وفيه العظمة والقدرة الإلهية، فإنه يدل على معنى الكمال والسلامة من العيوب والآفات، والتنزه عن النقائص ومالا يليق بالرب الكريم، فسبحان الباري –جل في علاه–.

ربنا الباري –سبحانه وتعالى– أي الخالق، وإن كان اسم الباري يحمل مزية في الاختصاص في معنى الخلق، فإنه يحمل معنى فصل الخلائق وتمييزها عن بعضها، لأن أحد معنيي برأ التباعد عن الشيء كما تقدم، وقد ذكر بعض أهل العلم تمييزًا بين اسم الخالق واسم الباري لأنهما يشتركان في معنى الخلق والإيجاد كما تقدم أيضًا، يقول الشوكاني –رحمه الله–: الباري أي الخالق وقيل أي المبدع الموجد خلقه على غير مثال ونظير سبقه، ولذلك قال بن كثير أيضًا –رحمه تعالى– البارئ الخالق ولما فرق بينهما قال –رحمه الله– الخلق هو التقدير وأما البرء فهو إبراز وتنفيذ ما قدره وقرره إلى الوجود، فجعل بين المعنيين فاصلًا يتميز كل واحد منهما عن الآخر، أما الإمام الخطَّابي –رحمه الله– فقد ذهب إلى

أن برأ واسم الباري –سبحانه وتعالى– يختص بالخلق المتعلق بعالم الحيوان، وأما الخلق فهو أعم يشمل الجمادات وغيرها، فالخلق يشمل السماء والأرض والجبال قال وقلما يستعمل فيها اسم الباري فما يقال برأ السماء وبرأ الأرض لكن المقصود بث الحياة في مخلوقاته الأحياء، وهنا يتميز بين الاسمين معنىً نجده فارقًا لأنه ليس في أسماء الله –سبحانه وتعالى– المتغيرة ترادف تام من كل وجه ومنه ما كان يقسم به علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– عندما يقول لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة.

يا كرام ربنا الباري –سبحانه وتعالى– الذي برأنا وخلقنا وذرأنا وأوجدنا من العدم، رب عظيم. هذا الاسم يستوجب في النفوس كمال التعظيم والتوحيد لله الباري، لأنه لا أحد يشاركه في هذا الاسم –سبحانه وتعالى–، وخلقه إن كانت لهم فضل صنعة وإيجاد في شيء مما سخرها لهم –سبحانه وتعالى–، لكن البرء أمر تفرد الله –جل جلاله– به. فلنجعل في توسلاتنا إلى الله ودعواتنا التي نجعل فيها من أسمائه الحسنى وصفاته العلا ما تشعر به النفس تعظيمًا وإجلالًا تستدر به رحمة الله وعطفه، وتستنزل قضاء حوائجها، اسم الباري –سبحانه وتعالى–.

واعلموا أن البارئ الذي خلقنا وأحسن تصويرنا وأوجدنا من عدم وسلمنا من العيوب ومازالت أفضاله علينا تترى، كريم عظيم، ننشأ وتنشأ أجيالنا على تعظيمه وكمال حبه والتعلق به –جل جلاله–، كلما أبصر أحدنا نفسه في المرآة فرأى فيها كمال الخلقة واستواءها، وجمال الصورة وحسنها، وسلامتها من العيوب والنقائص، وقدرته على حياة يعيش بها بين الأحياء، فليعلم أن البارئ –سبحانه وتعالى– الخالق العظيم الذي خلقه فصوره وأحسن خلقته، رب كريم إنما يستحق كمال العبودية التي خلقنا الله –تعالى– لأجلها.

الحسيب

حياكم الله والسلام عليكم ورحمة الله

في قصة الخليل إبراهيم –عليه السلام–، حين عزم قومه على إحراقه بالنار لما أقام عليهم الحجة وفقدوا المحجة، وهو القائل لهم بعدما سألوه من فعل هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟ أأنت فعلت هذا؟ قال: بل فعله كبيرهم هذا، فلما كشفوا زيف باطلهم وانكشفوا في حقيقة أمرهم، "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ" الأنبياء:٦٨ فلما أُلقِيَ –عليه السلام– في النار قال: حسبنا الله ونعم الوكيل قال الله: "يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ" الأنبياء:٦٩

حسبنا الله ونعم الوكيل، كلمة قالها الخليلان إبراهيم –عليه السلام– ومحمد –صلى الله عليه وآله وسلم– قال بن عباس –رضي الله عنهما–: حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم –عليه السلام– حين أُلْقِيَ في النار، وقالها –محمد صلى الله عليه وسلم– وأصحابه لما "قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ" آل عمران:١٧، كفاهم الحسيب وكفى بالله حسيبا.

"وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً" النساء:٨٦

في كتاب الله الكريم قول الله –سبحانه وتعالى–: "فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً" النساء:٦، وفي قوله أيضًا –سبحانه وتعالى–: "وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً" النساء:٨٦، كما جاء الحاسب في قوله –تعالى–: "وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ" الأنبياء:٤٧، فربنا –سبحانه وتعالى– حسيب وحاسب، أما الحسيب فهو على صيغة المبالغة فعيل، ويأتي له في اللغة معنيان: أحدهما الكفاية والاقتدار؛ تقول حسبي من الشيء كذا أي يكفيني، ومعنى الكفاية هنا أن الله –عز وجل– يكفي من توكل عليه وهو –جل جلاله– حسبه أي كافيه من كل ما أهمه أو سأله أو طلبه ورغب فيما سأله من عند الله، ويأتي الحسيب بمعنى المكافأة والمحاسبة والله –عز وجل– يحفظ أعمال العباد ويحصيها عليهم ليجازيهم بها إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

يقول الزَجَّاج –رحمه الله تعالى– الحسيب في أسماء الله –تعالى– يأتي بمعنى الكفاية، تقول العرب نزلت بفلان فأكرمني وأحسبني يعني أعطاني حتى قلت حسبي، فتحقق فيه معنى الكفاية، قال: ويجوز أن يكون من أحسبني الشيء أي كفاني بمعنى أنه على صيغة حسيب لكنه بمعنى مُفعل، فعيل بمعنى مُفعل، كما تقول أليم بمعنى مُؤلِم.

وقال غيره هي من الصيغ التي تأتي على وزن فعيل ويراد بها المفاعلة أي المحاسبة، حسيب بمعنى محاسب وكما تقول العرب وزير ونديم وجليس يعني مؤازر ومنادم ومجالس، فمنه حسيب بمعنى محاسب.

أيها الكرام ربنا –عز وجل– الحسيب على عباده، وهو –جل جلاله– كافٍ من توكل عليه وجعل الله –سبحانه وتعالى– حسبه أي كافيه من كل ما أهمه، فيأتي هذا الاسم العظيم في عداد وسياق الأسماء الحسنى التي تبعث ثقةً بالله وتعظيمًا له في القلوب –جل في علاه–.

اسم الله الحسيب –سبحانه وتعالى– يحمل معنى الحساب والمحاسبة، فالله –سبحانه– أحصى خلقه؛ أعدادهم، أصنافهم، أماكنهم لأنه خلقهم –جل جلاله–، وأحصى أقواتهم وأرزاقهم لأنه يدبرها –سبحانه–، وأحصى أعمال المكلفين في دواوينهم وصحائف أعمالهم وسيجازيهم عليها لأنه الحسيب –سبحانه–. ويوم القيامة سيُجَازَى أهل الأعمال بأعمالهم ويدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، لا يشغله –سبحانه– حساب أحد عن حساب أحد، فالله –سبحانه وتعالى– الحسيب.

اسم ربنا الحسيب إخوة الإسلام يبعث في النفس معنىً فيه الكفاية أو ما قال الله لنبيه –عليه الصلاة والسلام–: "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" الأنفال:٦٤، وأنتْ وأنتِ أيضًا فليكن حسبنا الله –سبحانه وتعالى– فالله كافينا.

وجملة حسبنا الله ونعم الوكيل ثقيلة ليست في الميزان فقط ولا على اللسان، لكنها في القلب ثقةً وطمأنينةً في الشدائد والصعاب والمدلهمات.
أرجو ألا تكون كلمة حسبنا الله ونعم الوكيل كلمة تقال تعبيرًا عن الضعف وخلو اليدين من الحيلة وأسباب التدبير، كأن قائلها يقول لا حيلة لي ولا قوة، مستسلمًا لما هو فيه من موقفٍ أو كربةٍ أو مصيبة، إنما يقولها الواثق بالفرج يأتيه من الله المنتظر بيقين نصرًا وعزًا وبابًا يفتحه له الله قائلا حسبنا الله ونعم الوكيل.
أما إنه من الأخطاء الشائعة أن تقال حسبنا الله ونعم الوكيل ويفهم معناها بمعنى الدعوة على من تقال عليه، فيقال حسبنا الله على فلان أو عليك أو عليها، أما إنها الكفاية، وإذا قيلت فإنما يستنزل بها نصر من الله، ليست دعوة على أحد، لكنها اتكال على الرب الحسيب الكافي –جل جلاله–.

أحبتي الكرام الحسيب الحفيظ الرقيب –سبحانه وتعالى–، هذه الأسماء الحسنى تبعث في النفس إيقاظًا مستمرًا ليوم آخر ينتظرنا، حين يكون الحساب عند الحسيب، ويكون ما نعمله في دنيانا هذه وما نقوله وما ننشئه نحن مسئولون عنه تمام المسئولية، فيلكن نصب أعيننا قول المصطفى –صلى الله عليه وسلم–: "لنْ تَزُولَ قَدَما عبدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَرْبَعِ خِصالٍ عن عُمُرِهِ فيمَ أَفْناهُ؟ وعَنْ شَبابِه فيمَ أَبْلاهُ؟ وعَنْ مالِهِ من أين اكْتَسَبَهُ وفيمَ أنْفَقَهُ؟ وعَنْ علمِهِ ماذا عمِلَ فيهِ"[1]، فأعدوا للسؤال جوابًا فإن لنا ربًا حسيبًا –سبحانه وتعالى–.

[1] صححه الألباني

الحميد

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

صلى النبي –صلى الله عليه وسلم– بأصحابه ذات مرة فركع، فلما رفع رأسه قائلًا سمع الله لمن حمده، قال: رجل من الصحابة خلفه ربنا لكم الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما قضى الصلاة قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: من المتكلم بتلك الكلمات؟ قال الرجل: أنا يا رسول الله قال –عليه الصلاة والسلام–: رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أول.

وهو الحميد فكل حمد واقع أو كان مفروضًا مدى الأزمان
ملأ الوجود جميعه ونظيره من غير ما عد ولا حسبان
هو أهله سبحانه وبحمده كل المحامد تصف ذي الإحسان

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" فاطر:١٥

اسم الله الحميد –سبحانه وتعالى– وقع في نحو سبعة عشرة مرة في القرآن الكريم، لكنه كثيرًا ما يقترن باسم آخر من الأسماء الحسنى مثل المجيد في قوله: "رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ" هود:٧٣، ومثل الولي في قوله –تعالى–: "وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ" الشورى:٢٨، ومثل الغني في قوله –تعالى–: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ" فاطر:١.

الحميد في اللغة بمعنى المحمود، اسم مفعول يدل على ما يقع عليه الحمد، يقال في اللغة: رجل محمود الصفات والسجايا، محمود الأقوال والأفعال، إذا كانت أقواله وأفعاله وصفاته تقع على نحو يحمده عليه الآخرون. فهم يثنون عليه ويذكرون فيه من جميل ما يقع منه، والحميد في أسماء الله –تعالى– صيغة مبالغة بمعنى أنه كثير ما يقع الحمد له –جل جلاله–، فهو فعيل بمعنى مفعول كما يقول الزجَّاج، لأن الله –سبحانه– محمود على كل لسان ومحمود على كل حال، وكما قال الخطَّابي –رحمه الله– فإن ربنا المحمود في السراء والضراء.

ربنا المحمود في كل حالٍ، في حال الكرب والشدة، وفي حال الرخاء، وذلك لأنه –سبحانه وتعالى– حكيم لا يقع في فعله الغلط، ولا ينسب إلى فعله ما لا ينبغي. ربنا حميد والحمد الواقع له في أرضه وسمائه من جميع خلقه لا حد له، فالله –جل جلاله– المستحق للحمد أولاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا ولهذا كان الحميد –سبحانه وتعالى–.

أما إن من دعاء النبي –عليه الصلاة والسلام– إذا قام من الليل يصلي كما في حديث بن عباس –رضي الله عنهما– أنه كان يقول: اللهم لك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السماوات والأرض، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت الحق ووعدك حق وقولك حق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق والنبيون حق ومحمد –صلى الله عليه وسلم– حق.

لقد كان –صلوات الله وسلامه عليه– يجمع من المحامد ما استحق به –صلوات ربي وسلامه عليه– أن يكون سيد الحمَّادين، وأمته أمة الحمد، وهو القائل: "وبيدي لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر" إنه عرف حقًا الحمد المستحق العظيم لربنا الحميد –سبحانه وتعالى–.

ولأننا أمة الحمد ونبينا –صلى الله عليه وسلم– سيد الحمَّادين، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، فإننا نعيش حمد ربنا –جل جلاله– في حياتنا أمة الإسلام على نحو كثيف يبعثنا على الانتهاض للقيام بحمد ربنا –جل جلاله–، فإنه حميد –سبحانه–.
نستفتح كل ركعة في صلواتنا في سورة الفاتحة بالحمد لله رب العالمين، فيما لا يقل عن سبعة عشرة مرة كل يوم وليلة، فإذا ما ركعنا وسجدنا قرنا تسبيح ربنا العظيم وتسبيح ربنا الأعلى بالحمد، سبحان ربي العظيم وبحمده سبحان ربي الأعلى وبحمده، فإذا ما رفع إمامنا رأسه من الركوع فإنما يقول: سمع الله لمن حمده، لتلهج الأفواه وتنبض القلوب ربنا لك الحمد، حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد.

طوبى لعبد والله إخوتي الكرام، يعيش هذا الحمد في كل ركعة من صلاته، يقطر بها قلبه مستشعرًا عظيم النعم والأفضال والآلاء التي ليس لها أول وليس لها انتهاء، فربنا حميد –سبحانه وتعالى–، من أجل أن نعيش هذا المعنى عظمة، ونملأ ميزاننا أجرًا وزخرًا وحسنات، نحن غدًا ما نكون إليها، هاكموها قوله –عليه الصلاة والسلام–: "والحمدُ للهِ تملأُ الميزانَ"[٢]، فاملؤوا موازينكم بها، واستكثروا منها، بل هاكم أبوابًا تفتح لنا الطرقات نحو حمد ربنا في كل لحظة بالعشي والآصال، في الحديث الصحيح يقول المصطفى –صلوات ربي وسلامه عليه–: "إنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا"[٣]. كم مرة قلتها عبد الله وأنتِ أمة الله؛ الحمد لله؟ من فينا ذاك الذي ما يزال يظن أنه إنما يُحمَد الله عندما تتجدد نعمة ملموسة حاضرة، فيحمد الله إن أكل فإن لم يجد سكت، يحمد إن لبس فإن لم يجد انصرف، يحمد الله إن رُزق بولد وزوجة ومال ووظيفة، يا كرام تجدد النعم الملموسة الحاضرة هي جزء مما نصرف له حمدنا لربنا، وإلا فأنفاسنا التي تتردد في صدورنا نعم لا تحصى، جوارحنا التي مازلنا نستعملها نعم لا حد لها، العافية التي تغطي أبداننا نعمة لا وزن لها، كم وكم تحيط بنا النعم والآلاء والله –عز وجل– وحده المنعم المستحق للحمد عليها.

ختامًا، يأسرنا كثيرًا إحسان ذوي الإحسان، وتَفَضُّل بعض ذوي الإكرام علينا، بمال أو هدية أو كلمة طيبة أو شفاعة أو تحقيق مصلحة، فنجد أنفسنا مضطرين أدبًا وذوقًا أن نشكره وأن نثني عليه، وكلما عُظم فضل ذي الفضل علينا وجدنا أنفسنا نلهج بالاعتراف بفضله والثناء عليه بحمده، فبالله عليكم أي حالٍ لنا معشر العباد مع ربنا الكريم أما إنه الحميد –سبحانه وتعالى–، "وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ" الإسراء: ٤٤.
فلنكن أمة الحمد في مقدمة هذا الركب الذي يلهج بحمد الله وينطق به فالحمد لله رب العالمين.

[٢] أخرجه الترمذي والنسائي
[٣] صحيح مسلم